النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل السابع

في الخطابة النصرانية بين عرب الجاهليّة

بعد كلامنا عن المفردات النصرانية في لغة عرب الجاهليّة واعلامها وامثالها وحكمها يقتضي ان نبيّن نفوذ هذا الدين بينهم بما هو ادلّ على آدابهم . وليس اكثر دلالة على ذلك من فنّ الخطابة

قد افتخر العرب في كلّ اجيالهم بمقدرتهم على البلاغة والتبسّط في الكلام وقوّة العارضة حتّى انّهم لجهلهم آداب ما سواهم من الشعوب كاليونان والرومان نسبوا الى قومهم الامتياز بفنّ الخطابة دون سواهم . ومهما كان من الصحّة في هذا الادّعاء لا مراء في انهم عُرفوا في كلّ آن بذلاقة اللسان وطلاقة الكلام

فيا ترى ماذا كان مبلغ نصارى العرب في هذا الفنّ وهل بقي شيء من آثارهم المنبئ ببلاغتهم الخطابيّة بين اهل جلدتهم

فقبل الجواب على هذا السؤال لا بدّ من تقديم ملحوظتين: الاولى انّ ما بلغنا من خطب عرب الجاهليّة لم يُجمع الّا بعد الهجرة بمدّة مديدة فدوّنه الرواة في القرن الثاني للاسلام . فمن البديهي انّ كثيرًا من تلك الآثار الخطابيّة قد ضاع بطول الزمان وآفة النسيان او لم يبلغنا منه الّا نُتف قليلة لا تكفي لأن نبني عليها الحكم الصواب في مقدرة نصارى العرب على القاء الخطب

الملحوظ الآخر انّ الرواة الذين رووا تلك المقاطيع كانوا من اهل الاسلام لا

يهمّهم كثيرًا الاشارة الى دين خطباء العرب في الجاهليّة وكلّهم في مظنّتهم من اهل الشرك لا يختلف في عرفهم النصرانيّ عن اليهوديّ او الوثني

فلم يبقَ لكشف القناع عن الحقيقة الّا ان نجري على الاستقراء والدلائل التي سبق لنا جمعها في الفصول السابقة للتمييز بين النصارى والمشركين واثبات ما يمكن استخلاصهُ لبيان علمهم بالخطابة فنقول :

معلوم انّ الخطابة على اختلاف اغراضها من تثبيت ومشورة ومشاجرة على قسمين كبيرين دينيّة ومدنيّة . وفي كليهما آثار باقية تدلُّ على امتياز النصارى فيهما على عهد الجاهليّة وأوّل ظهور الاسلام

١ الخطابة الدينيّة بين نصارى عرب الجاهليّة

بيّنا في فصول مطوّلة سبقت لنا في القسم الاوّل من هذا الكتاب كم كانت النصرانيّة منتشرةً في انحاء العرب فتتبّعنا كلّ جهات جزيرتهم واثبتنا استنادًا الى المؤرخين القدماء من يونان ورومان وسريان معاصرين ثم عرب كتبوا بعد الاسلام بقليل . هذا فضلًا عن الآثار الحجريّة في الحيريّة والآثار الفنيّة المختلفة . فان كان الامر كذلك يلزم القول بانّ الخطابة الدينيّة كانت شائعةً بين تبعتها لأنّ الديانة النصرانيّة تنتشر عادةً بالتعليم الشفاهي اذ قال السيّد المسيح لرسلهِ (متّى ٢٨ : ١٩ — ٢٠) : « اذهبوا وتلمذوا كلّ الامم ... وعلّموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتُكم بهِ » فلا يجوز استثناء المبشرين بالنصرانيّة بين العرب من هذه القاعدة . ولا سيّما انّهم كانوا شيّدوا بينهم كنائس عديدة واقاموا لهم اساقفة وكهنة وشمامسة كما قرّرنا ذلك بالشواهد . وهؤلاء كلّهم في مقدّمة واجباتهم الارشاد والخطابة في عقائد الدين ليرسخوها في عقول رعاياهم ويثبتوها للخوارج والطالبين التديّن بالنصرانيّة . فليت شعري ماذا بقي من تلك الآثار الطيّبة والخطب او الميامر . ولا ننكر انّ اللغة الكلدانيّة كانت في بعض جهات العرب الكلدانيّة او اليونانيّة الّا انّهُ كان للغة العربيّة حظّها ايضاً في النواحي التي كان اهلها من اصل عربي محض كاليمن والحجاز وبين عرب المدر الساكنين في الحيم حيث كان يسكن بينهم اساقفة يتنقّلون معهم في مناجعهم كما صرّحت الآثار الكنسيّة والمجامع الدينيّة بذلك ودوّنّا اقوالهم

ومما عرض الى الفقدان تلك البقايا الجليلة انّ الخطّ العربيّ الذي علّمهُ النصارى لاخوانهم العرب كما أيّدنا ذلك بالشواهد لم يكن بعد انتشر انتشاراً كافياً ليحفظ ذلك القلم الحديث كنوزهم الادبية . ولما جاء الاسلام اتجهت الافكار الى الدين الجديد وجعلوا القرآن الكلّ في الكلّ افوز ذويهِ بقبائل العرب

هذا مُجمَل ما يقال عن الخطابة الدينيّة النصرانية ولكننا لم نيأس من التقاط بعض الحبوب من تلك السنابل المحصودة وبعض الفتات من تلك الموائد الفاخرة . فمن ذلك خطيبٌ دينيٌ شاع اسمهُ في بطون بلاد العرب وانجادها اجمع كلّ اهل البادية من حضر ومدر على انهُ كان آيةً في البلاغة الخطابيّة نُريد بهِ قسّ بن ساعدة الذي يدلّ مجرّد اسمهِ على نصرانيّتهِ وضُرب بهِ المثل في اساليب البيان . ولو لم يكن في جزيرة العرب غير قسّ اشتهر في البلاغة والخطابة لكفى النصارى بهِ فخراً . امّا ما يؤثر عنهُ تأييداً لهذه السمة العظيمة فأسطر قليلة رويناها في كتابنا شعراء النصرانيّة (ص ٢١٢ — ٢١٣) وهناك اخبار رويناها على علّاتها تثبت رفعة مقامهِ بين العرب لكنها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً . وكذلك اخبارهُ المرويّة عن كتبة العرب فانها اقربُ الى اساطير الاوّلين وخرافات الاقدمين فيقول الرواة هناك انهُ ادرك زمن بقايا الحواريّين ورأسهم سمعان الصفا وانهُ عاش ستمائة بل سبعمائة سنة (ص ٢١٦) وانّهُ بشّر بمجيء نبيّ المسلمين وانّ محمّداً رآهُ في سوق عكاظ يخطب على جمل لهُ اورق (راجع الشرشي ٢ : ٢٧٥) واشياء أخرى اقرب الى الخرافات منها الى صحيح الروايات . ولعلّهم اصابوا بقولهم انّهُ « كان اسقفا على نجران وانهُ كان زاهداً بالدنيا يلبس المسوح ويتبع السياح على منهاج المسيح » وكذلك قولهم انهُ « كان يتّكئ على عصا في خطبهِ » فان اساقفة النصارى يمسكون في ايديهم عكّازاً وهم يخطبون (لا سيفاً كما روى البعض) . وخلاصة الكلام انّ قسّاً كان خطيباً مصقعاً اثّر كلامهُ البليغ في قلوب العرب حتّى نسبوا اليهِ من الاقوال والاعمال ما يردُّه النقد الصحيح ولا يقبلهُ الذوق السليم . وها نحن نروي ثلث خطب من خطبهِ فانّنا ذكرناها في شعراء النصرانيّة لا تصديقاً لصحّتها بل اعلاناً بما تناقلهُ العرب عن قسّ غثّاً او سميناً وهذه الخطب وجدناها في التذكرة الحمدونية (نسخة باريس الخطيّة ص ٨٤٢)

أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر والجود سرور والمعرفة كنز والجهل سقم والعجز ذلّة والحرب خُدعة والظفر دُوَل والايّام عِبَر والمرء منسوب الى فعلهِ مأخوذ بعملهِ فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد واستشعروا الجد تفوزوا بهِ ودّعوا الفضول يجاوبكم السفهاء وأكرموا الجلوس يسر ناديكم وحاموا عن الحقيقة يُرغَب في جواركم وأنصفوا مَن آنفكم يرفق بكم وعليكم بمحاسن الاخلاق فانها رفعة وايّاكم والاخلاق الدنيّة فانها تضع الشرف وتدم المجد

(خطبة) ايها الناس شارفوا ابصاركم في كرّ الجديدين ثم أرجعوها كليلةً عن بلوغ الامل فان الماضي عظة للباقي ولا تجعلوا المرور سبيل العجز فتقطع حجتكم في موقف الله سائلكم فيه ومحاسبكم على ما اسلفتم . ايها الناس امس شاهد فاحذروهُ واليوم مؤدب فاعرفوهُ وغدًا رسول فاكرموهُ وكونوا على حَذَر من هجوم القدَر فان اعمالكم تطلق ابدانكم والصراط ميدان يكثر فيهِ الشار فالسالم ناجٍ والنابرُ في النار

(خطبة) اتقوا عباد الله وانتم في مَهل بادروا الأجل ولا يغرّنكمُ الامل فكأن بالموت وقد نزل فشغل المرء شواغلهُ وتركت عنهُ بواطلهُ وميّأت اكفانهُ وبكاهُ جيرانهُ وصار الى المنزل الخالي بجسده البالي قد فارق الرفاهية وخامن (كذا) الداهية فوجُههُ في التراب عفير وهو الى ما قدّم فقير

هذه كما ترى حكمٌ اكثر منها خطب . والعجب انّ الكتبة السريان المعاصرين الذين استفدنا من تواريخهم عدّة اخبار عن العرب لم يأتوا بذكر قسّ بن ساعدة على انّهم ذكروا خطيباً آخر وكاتباً بليغاً اشتهر بالكوفة في القرن الاوّل من الاسلام وكان اسقفاً على نصارى الكوفة وعاقولا، يُدعى برجس اسقف العرب . فهذا كان متمكناً في درس كتب اليونان ونقل قسماً منها كاورغنون ارسطوطاليس وكتب شروحاً على الاسفار المقدّسة ولهُ عدّة خطب وميامر لم تزل بين مخطوطات عواصم اوربّة كلندن وباريس ورومية يتّضح منها ما اتّصف بهِ برجس اسقف العرب من العلم والبلاغة في الخطب الدينيّة . على انّ هذه الآثار كلّها لم تبلغ الينا الّا بالسريانيّة . ومن المحتمل انّ عربيّتها ضاعت فبقيت ترجمتها السريانيّة . كانت وفاة برجس المذكور في اواخر القرن الاوّل للهجرة

وممّن يجب نَظْمهم في سلك خطباء النصرانيّة اولئك السيّاح والرهبان الذين تكرّر ذكرهم في الشعر العربيّ المرويّ سابقاً فانّهم لم ينقطعوا فقط الى الصلاة والزهد بل كثيراً ما كانوا يختلطون بالعرب ويدعونهم الى نبذ اديانهم الباطلة ويرشدونهم الى الصلاح بالخطب والمواعظ . كما ورد في تراجم البعض منهم كالقديس هيلاريون والقديس افتيموس بين عرب الشام والقديس برجنيوس رسول عرب

اليمن وموسى رسول الغسّانيين وغيرهم كثيرين سبق ذكرهم . فينبغي لذلك القول بان الخطابة النصرانيّة الدينيّة قد ازهرت بين العرب كما ازهرت بين غيرهم من الامم وان لم تبلغ الينا صورتها بسبب آفات الزمان وكوارث الحدثان

٢ الخطابة الدينية بين نصارى الجاهلية

ان كانت الآثار الدينيّة من خطب نصارى الجاهليّة الباقية الى عهدنا نزرة قليلة فكان أملنا في جمع مآثرهم المدنيّة اعظم لكأنّ الرواة بما هو اقرب الى اخلاقهم وافكارهم . الّا انّهم ما رووهُ منها لا يكاد يستحقّ الذكر او هو فصول حكميّة ليست خطباً وُضعت للإقناع والإقناع كما لا يخفى هو غاية الخطيب ومحور الخطابة

ولكن اذا كانت الخطب المرويّة لا يكاد يُعبأ بها انّا نجد في مآثر العرب ما يثبت شيوع الخطابة بين القبائل النصرانيّة . واوّل هذه القبائل واقدمها قبيلة اياد التي روينا اخبارها واثبتنا تنصّرها (ص ٧٥ — ٧٦ و ١٢٤) عن عدّة كتبة . ومنها كان قس بن ساعدة الايادي المارّ ذكرهُ . فاياد هذه نسب اليها قدماء العرب البراعة في الخطابة لنا على ذلك شاهد حسن في مديح الشعراء لاياد وذكرهم لخطبائها منها قول الشاعر في وصف خطبهم :

يرمون بالخطب الطوال وتارةً وحي الملاحظ خيفةَ الرقباء

وصفهم بتطبيق خطبهم على مقتضى الحال تارةً بالطول والتصريح وتارة بالوجازة والكناية والاشارة . وقال احدهم يرثي ابا دوّاد بن جرير الايادي :

نعى ابنَ جريرٍ جاهلٌ بمُصابهِ فمنْ نزارًا بالبُكا والتحوُّبِ
نعاهُ لنا كالليث يحمي عرينهُ وكالبدر ينشى ضوءهُ كلُّ كوكبِ
واضربُ من حدّ السنان لسانهُ وامضى من السيف الحُسام المشطّبِ
زعيمُ نزارٍ كلّها وخطيبُها اذا قال طأطا وأسهُ كلُّ مُشنبِ
سليل قروم سادةٍ ثم قالةٍ يبزّون يوم الجمع اهلَ المحصّبِ
كقسّ اياد او لقيط بن معبدٍ وعذرةَ والمنطيق زيدِ بن جُندُبِ

فأثنى الشاعر على ابي دوّاد الايادي واطرأ بلاغتهُ في الخطابة ثمّ ذكر اربعةً غيرهُ كلّهم خطباء وكلهم من اياد . ذكر لقيط بن يَعْمُر الايادي الذي انذر قومهُ

غزوَ كسرى لهم وارسل اليهم قصيدتهُ العينيّة التي هي خطبةٌ بليغة حاكت في صدورهم فنجوا من عدوّهم . ومنها قولهُ :

أبلغ ايادًا وخلِّلْ في سُراتهمِ ... انيّ أرى الرأيَ إن لم أعصَ قد نصَعا
يا لهف نفسيَ ان كانت امورُكمُ ... شتّى وأحكمَ امرُ الناسِ فاجتمعا
ألا تخافونَ قومًا لا ابا لكمُ ... اسوا اليكم كامثالِ الذّبى سُرُعا
ما لي اراكمْ نيامًا في بُلهنيةٍ ... وقد ترَوْنَ شهابَ الحربِ قد سطعا
صونوا جيادَكمُ واجلُوا سيوفكمُ ... وجدّدوا للقنيّ النَّبلَ والشُّرُعا
يا قومِ لا تأمنوا ان كنتمُ غُبُرًا ... على نسائكمُ كِسرى وما جمعا
وقلّدوا امركمْ فتىً درِبتْ ... رحبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مُضطلعا
لقد بذلتُ لكم نُصحي بلا دَخَلٍ ... فاستيقظوا انّ خيرَ العلمِ ما نفعا
هذا كتابي اليكم والنذيرُ لكم ... لمن رأى رأيهُ منكم ومَنْ سَمِعا

وهي طويلة بليغة . وفيها كما ترى كلّ صفات الخطابة الجاهليّة . وقد ذكر في مطلعها بيَع قومهِ النصارى

اما الخطيب الثاني المذكور فهو عُذرة بن حجرة الخطيب الاياديّ الذي وصفهُ الشاعر وشبّههُ بقس بن ساعدة بقولهِ :

فانّك ضحّاكٌ الى كل صاحبٍ ... واخلقُ من قسٍ غداةَ عُكاظها

لكنّ آثارهُ الخطابيّة مجهولة . ومثلهُ زيد بن جُندب المنعوت بالمِنطيق اي الخطيب المفوّه البليغ فانّ خطبهُ لم تبلغ الى يدنا . ويروى عنهُ انهُ كان خطيباً وشاعرًا معاً

وكما اشتهرت اياد في الخطابة بين قبائل العرب كذلك قرنوا بها قبيلة تميم وهي ايضاً من القبائل التي غلبت عليها النصرانيّة كما دلّت اليهِ كتبة العرب (راجع الصفحة ١٢٦ من كتابنا) . فمن خطبائهم اكثم بن صيفي بن رباح التميمي . قال ابن نباتة في كتابهِ سَرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (ص ١٢) انهُ « اشهر حكّام العرب في الجاهليّة وحكمائهم وخطبائهم » وقد جمعوا من كلامه حكماً وامثالاً ووصايا لقومهِ منها قولهُ :

يا بني تميم لا يفوتنّكم وعظي ان فاتكم الدهرُ بي . يا بني تميم ان مَصارع الالباب تحت ظلال الطمع ومن سلك الجدّ أمن العثار . ولن يعدم الحسود ان يتعب فكرهُ ولا يجاوز ضرّهُ نفسهُ والسكوت عن الاحمق جوابهُ . . . .

ومن اقوالهِ ما اوصى بهِ اولادهُ ليقرأوا متحدين وضرب لهم مثل السهام المجتمعة :

كونوا جميعاً يا بنيّ اذا اعترى خطبٌ ولا تتفرّقوا آحادا
تأبى القداحُ اذا اجتمعنّ تكسُّرًا واذا افترقنّ تكسّرت أفرادا

ومن خطباء تميم الذين ذكرهم العرب في اواخر الجاهليّة واوائل الاسلام عطارد ابن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وعدُّوهم من اكابر السادات وبلغاء الخطباء. وذكروا دخولهم على نبي الاسلام وكلامهم بحضرته (اطلب الاغاني ٤ : ١٠ — ١٢) وهو لا يدلُّ على كبير امر لا لفظاً ولا معنًى اذ لم يدوّنهُ كاتبٌ وقت القائه وانّما روي بعد نيّف ومئة سنة. ويصحّ هذا في اساقفة نجران الوافدين على محمّد كما ذكرهم ابن سعد وصاحب الاغاني وغيرهما. فلا يمكننا ان نبدي حكماً في عارضتهم نظرًا للقليل المصنوع المروي عنهم. وكذا قل ايضاً عن بقيّة خطباء العرب الذين اشتهروا بالخطابة فبقيت اسماؤهم وضاع كلامهم. واذا ثبت قولنا انّ الخطابة النصرانيّة دينيّةً كانت او مدنيّةً بلغت في الجاهليّة مقاماً رفيعاً شهد لهُ التاريخ وان فُقد معظم آثارها (لهُ بقيّة)

مناعي آل الوطن في اثناء الحرب

نظر عوي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

كما أشعرنا الموت بمناخاسِ المؤلم اذ ضرب في زمن الحرب العموميّة العدد العديد من رؤساء الكنيسة وجلة الاساقفة ونخبة الاكليروس القانوني والكهنة كذلك بسط ساعدهُ وبطش باعمار الالوف من المواطنين من اهل العالم من الاعيان وارباب السيف والقلم وذوي الصلاح والاحسان لم يفرز بين المليك والمسارك والغني والصعلوك والصغير والكبير فكانت مناعي القوم تتوارد علينا تترى لا تكاد ترقأ العين من دموعها ويبدأ القلب من روعاته. وكان بودّنا ان نخصّ الجميعَ بالذكر لكنّ الصحائف الطويلة لا تستوفي باسمائهم. فاخترنا بعض الذين وقفنا على لمّع من تاريخهم مباشرين اوّلاً بالوجوه والمحسنين. ثمّ نذكر بعض ضحايا الاتراك وشهداء الوطن ثمّ الادباء والكتبة ثمّ الاطبّاء. ونختم بذكر قوم من ذوي البرّ والصلاح وكلّ ذلك بوجيز